دور المناهج التعليمية في غرس القيم الروحية والأخلاقية
"مادة التصوف أنموذجا"

د. أمينة تليلي بلحسن ، جامعة الزيتونة تونس

تلخيص:

تعد المؤسسات التعليمية بمختلف مستوياتها (مدارس، معاهد، جامعات) المؤثر الأول والمباشر في تكوين شخصية الفرد المكون الأساسي للمجتمع، وفق مقاييس ومعايير محددة. وتعد المناهج الدراسية الأداة الفعالة التي تشكل شخصية الفرد وبناء أفكاره.

ولهذا يذهب البعض إلى القول بأن "المنهج" ما هو إلا وليد المجتمع بل إنه يعكس ثقافة المجتمع بكل عناصرها (المعتقدات الدينية، العادات، التقاليد، أنماط التفكير، السلوك، وأساليب التربية). وما على المنهج إلا أن يسدّ ثغرات المجتمع ويصلح فيه ما فسد من خلال تربية الناشئة على خدمة هذا المجتمع والعمل على إعادة بناءه.

وبهذا يكون المنهج أداة التربية لإحداث تغييرات جذرية في المجتمعات إضافة إلى دورها التعليمي. ولقد ساهمت عدّة عوامل متظافرة في خلق هذا التكامل في المؤسسات التعليمية للتجاوز دورها التعليمي لتقوم بدور أجل وأعظم ألا وهو التربية. وذلك برسم مناهج في هذا الدور القيم.

- **علاقة موضوع المداخلة بمحاور المؤتمر**:

يندرج موضوع ورقتي البحثية ضمن محاور المؤتمر، وذلك لتطرقه لمسألة مهمة ألا وهي دور المناهج التعليمية في تكوين شخصية الفرد. وما لهذا المناهج من شأن في تحسين الواقع التربوي والاجتماعي على حدّ السواء.

- **أسباب اختيار الموضوع:** تكمن وراء اختياري لهذا الموضوع أسباب عدّة منها:

– دور المؤسسة التعليمية في تنمية شخصية المتعلم وتكوينها للانخراط في النسيج المجتمعي.
– أهمية مسألة الإصلاح التربوي في الواقع العربي، حتى يتماشى مع الواقع العالمي.

- **أهمية الموضوع:** لموضوع ورقتي البحثية بالغ الأهمية، أذكر بعضها:

– تسليط الضوء على الوضع الراهن للمناهج التعليمية في المؤسسات التعليمية بالوطن العربي.
– تكمن أهميته أيضا في طرحه لمسألة جدّ مهمة وهي دور المناهج التعليمية في تكوين شخصية الفرد.

- **أهداف الموضوع**: سعيت من خلال هذه الورقية البحثية إلى تحقيق بعض الأهداف لعل أولاها اهتماما:

– البحث في الأهداف المنشودة من المناهج الدراسية التي تجاوزت تزويد الدارسين بالمعلومات إلى تزويدهم بالخبرات الحياتية.
– التعرف على دور المناهج التعليمية في بناء المنظومة القيمية الأخلاقية للفرد والمجتمع.

- **الكلمات المفاتيح:** المنهج، التعليم، العملية التعليمية، القيم، الأخلاق، الروحية، التصوف...

مقدمة:

تعدّ دراسة المناهج التعليمية من أهم المباحث التي شغلت بال الباحثين على اختلاف تخصصاتهم، فهي مثار بحث عندهم يقدمون فيها الآراء والنظريات قصد تجديدها وتجويدها لمواكبة متطلبات العصر (التطور). فهي مثار التطور والتحليل والبحث، وكل يدلي بدلوه فيها. فتصاغ حولها النظريات.

والناظر يلحظ أن وظائف المناهج التعليمية تتجاوز دورها التقليدي وهو البعد التعليمي، إلى دور أعمق وأدّق وهو البعد التعليمي، إلى دور أعمق وأدّق وهو البعد القيمي الأخلاقي والروحي على حدّ السواء، فلا ننسى ما لهذه المناهج من اثر مباشر وغير مباشر على شخصية المتعلم. وحتى تقوم هذه المناهج بدورها، لابد من ضابط يضبطها، فتحقق بهذا وظائفها المرجوة. **فما نعني إذن بالمناهج التعليمية؟**

مفهوم المناهج التعليمية وأهميتها:

- **مفهوم المنهج:**

ورد تعريف المنهج في اللغة في أكثر من مصدر، ومن ذلك ما ذهب إليه صاحب لسان العرب على أنه: "الطريق، وانتهج الطريق صار نهجا، ونهجت الطريق أبنته وأوضحته، ونهجت الطريق سلكته"[1]. وقيل: "النهج هو الطريق المستقيم الواضح"[2].

أما اصطلاحا فيعرف بأنه: "كيفية أو طريقة أو فعل أو تعليم شيء معين وفقا لبعض المبادئ بصورة مرتبة ومنسقة ومنظمة"[3].

- **مفهوم المناهج التعليمية:**

يعرف المنهج التعليمي بأنه: "مجموعة المواد أو المقررات الدراسية التي على الطالب أن يدرسها في حجرة الدراسة بمعونة المدرس"[4].

وقيل بأنه: "جميع ما تقدمه المدرسة إلى تلاميذها تحقيقا لرسالتها في بناء البشر وفق أهداف تربوية محددة وخطة علمية سليمة، بها يساعد على تحقيق نموهم الشامل جسميا وعقليا ونفسيا واجتماعيا وروحيا"[5].

وغيرها من التعريفات والتي تفيد في مجملها أن المنهج التعليمي هو تلك الخبرات التي تهيئها المؤسسة التعليمية لطلابها داخلها وخارجها بهدف تحقيق نموهم الشامل وتهذيب سلوكهم.

والناظر في المناهج التعليمية يرى تعددها وتنوعها لتشمل جميع المجالات العلمية والمعرفية والتي تسعى جميعها إلى بناء شخصية المتعلم وتكوينها وفق معايير تخلو له التعايش داخل الجماعة دون فقد لخصوصيته ومميزاته التي قد ينفرد بها عن غيره.

---

[1]) ابن منظور، جمال الدين (ت711هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت-لبنان، ط/3، 2004م، 365/14.

[2]) مجمع اللغة: **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق، القاهرة-مصر، ط/4، 2010م، ص 996.

[3]) عوابدي، عمار: **مناهج البحث العلمي وتطبيقاتها في ميدان العلوم القانونية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط/3، 1999م، ص 139.

[4]) الشافعي، إبراهيم محمد، وأخرون: **المنهج المدرسي من منظور جديد**، مكتبة العبيكان، السعودية، ط/1، 1416هـ، ص 26.

[5]) الدمرداش، عبد المجيد: المناهج المعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة-مصر، ط/1، 1988م، ص 12.

- **عناصر المنهج:**

ونعني بالعناصر تلك الحلقات المتداخلة مع بعضها بحيث يصعب نجاح أي حلقة منها دون الارتباط بغيرها من الحلقات السابقة أو اللاحقة لها، وهي:

- **أهداف المنهج:** توصيل معلومات معينة للطلاب بطريقة معينة، ونقل خبرات وثقافات لهم، بحيث تصبح العملية التعليمية ناجحة.
- **محتوى المنهج**: لابد أن يحتوي المنهج على المعلومات التي تخدم الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، فإذا كان الهدف من المنهج اكساب الطلاب صفات أو مهارات معينة، فلابد أن يركز المحتوى على هذه المهارات، وطرق اكتسابها وكيفية استغلالها.
- **تنفيذ المنهج**: أي طريقة التدريس، وتعني الأسلوب الذي يقدم به المدرس المعلومات والحقائق للطلبة أو الأسلوب الذي ينظم به المدرس المواقف والخبرات التي يريد أن يضع كلبته فيها حتى تتحقق لديهم الأهداف المطلوبة.
- **تقويم المنهج وتطويره**: ونعني بتقويم أي ادخال تعديلات معنية على بعض أجزاء المنهج دون تغيير المفاهيم الأساسية أو الهيكل العام له. أما مفهوم تطوير المنهج فهو أكثر شمولية من التحسين حيث يشمل كل جوانب المنهج المدرسي إلى طرق التدريس والوسائل التعليمية[6].

- **أهمية المناهج التعليمية:**

تكتسب المنهج أهميته من أهمية العملية التعليمية، فهي وسيلة التطور والبقاء للأمم فهي محكومة بالفلسفات الاجتماعية ومظاهر الحياة وبالتراث الثقافي الذي خلقته الأجيال السابقة وبالنظم الاقتصادية التي تسودها. فهي تعمل على تنمية الفرد في إطار قدراته واستعداداته وميوله وتقوية ما لديه من طاقات خلاقة وتوجيه هذا كله لصالح الجماعة في جميع الجوانب (الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية...).

وخلاصة القول أن المناهج التعليمية تعدّ من اقوى الأدوات في تحقيق آمال الشعوب وتطلعاتها، وما من أمة سعت إلى التقدم والتطور في أي مجال من المجالات إلا وعكفت على مراجعة مناهجها التعليمية وتطويرها. ومن بين هذه المناهج التي تقوم بهذه الوظائف نذكر مادة التصوف الإسلامي التي تقدم لطلاب الجامعات الإسلامية أو حتى في مراحل التعليم بالمعاهد. فما المقصود بالتصوف؟.

التصوف تربية روحية وأخلاقية:

- **مفهوم التصوف:**

من المعلوم أن التصوف نوعان تصوف فلسفي على نحو ما ذهب إليه محي الدين بن العربي، وأخر سلوكي (سني) وشيخه الجنيد، وما يجمع بينهما هو الجانب الروحي والأخلاقي.

وقد قيل في مفهوم التصوف هو: "الدخول في خلق سني والخروج من كل خلق دني".

وقيل هو: "خُلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء".

وقيل: "الصوفي من صفا لله قلبه".

[6] https://uomustansiriyah.edu.iq/media/lectures/12/12_2020

وعرف بأنه: "استقامة الأحوال مع الله"[7].

فالتصـــوف إذن هو تصـــفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية، واخماد صـــفات البشـري ومجانبة الدواعي النفسـانية ومنازلة الصـفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسـول في الشريعة. **فكيف يكون درس التصوف تربية على القيم الأخلاقية والروحية؟.**

- القيم التي يدرسها التصوف:

إن ما يميز التصـــوف بشـــكل عام الاهتمام الكبير بالمجال الروحي والمجال الأخلاقي، ما يؤثر في المتلقي، وذلـك لكون القيم المعتمـدة في علم التصـــوف تنتمي إلى منظومتين، منظومـة القيم الروحيـة ومنظومـة القيم الأخلاقيـة، وتلك القيم مســـطورة في أغلب كتب القوم وتتمثل القيم الروحية في (المحبة، الشـوق، الرجاء، الخوف، السـتر والتجلي، المحو والاثبات...). أما المنظومة الأخلاقية فتتجسـد في الآتي (الزهد، التواضـع، الصـبر، القناعة، الرضـا، الاستقامة، الصـدق والعدل، الإحسـان...)، إلى غير ذلك من القيم الروحية والأخلاقية المضمنة في مصادر القوم[8].

وقد أخذ أهل التصـوف على اختلاف مدارسـهم ومشـاربهم على عاتقهم مشـعل الإصـلاح وجعلوا مشروع إصلاحهم يقوم على عنصرين غاية في الأهمية وهما: النفس والقلب، إذ هما قطبا رحى الصلاح أو الفساد، مصداقا لقوله جلّ جلاله: **(إِنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بِقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأنفسِهم)**(سورة الرعد: الآية 12)، فلا بد من خلو القلب من الشـــرك، والعمل على إبراز صـــفائه. قال تعالى:**(إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)**(سـورة الشـعراء: الآية 89). وقال أيضـا **(مَنْ خَشِـيَ الرَّحْمَنَ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)** (سـورة ق: الآية 33)[9].

وقد قدّم الصوفية النموذج الأمثل للفرد الصالح المُصلِح الذي يكون له الأثر الواضح والبين ليس فقط على نفس الفرد، بل يتعدى ذلك إلى المجتمع برمتـه عبر القدوة الصـــالحة، من قبيل المســـاهمة في بناء المجتمع على أسس أخلاقية راقية ومتينة؛ لأن الأخلاق أساس بناء الحضـارة وتقدم البشـرية نحو مستقبل أفضـل، والصـلاح والإصـلاح مرتبطان ارتباطا وثيقا بالأخلاق، فالرسـل عليهم الصـلاة والسـلام كان منطلقهم الإصـلاحي هو الاهتمام بالجانب الأخلاقي، ونبيُّ الرحمة محمد صـلى الله عليه وسـلم قال: **"إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"**[10].[11]

والملاحظ من هذا أن التربية الصوفية هي تربية أخلاقية روحية بالأساس، فالمتطلع على كتب القوم ومناهجهم يلحظ اهتمامهم البالغ بالأخلاق. وعلى الأخلاق تبنى الأمم كما يقال لهذا السـبب ولاها الصـوفية بالغ الاهتمام. فنجدهم شديد الحرص على تزكية النفس وتهذيبها. حتى ترقي إلى مستوى إنسانيتها.

---

[7]) للتوسـع في مفهوم التصـوف انظر: الشـوبكي، محمود: **مفهوم التصـوف وأنواعه في الميزان الشـرعي**، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة 2002م، ص 432-433.

[8]) أومليـل، محمـد: **التربيـة الأخلاقيـة عنـد الصـــوفيـة**، الأكـاديميـة الـدوليـة للـدراســـات الصـــوفيـة والعرفـانيـة، https://sufirfan.org/?p=8520

[9]) المنوني، عادل: **التصـوف تربية روحية أخلاقية**، https://www.hespress.com/التصـوف-تربية-روحية-أخلاقية-html.291768

[10]) أخرجه الإمام أحمد: في المسند، ح.رقم 1609، 381/1.

[11]) المنوني، عادل: **التصـوف تربية روحية أخلاقية**، https://www.hespress.com/التصـوف-تربية-روحية-أخلاقية-html.291768

وتعد هذه القيم (الأخلاقية والروحية) أول ما يتناوله التصوف بالدرس، ما له من تأثير على المسلم في إطار تلك العلاقة الثلاثية (الخالق، النفس، الخلق)، فهو تلك اللبنة الأولى التي يسير فيها إلى الله، ويترقى في المقامات وصولا إلى مقام الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

إذ يمكن لدرس التصوف أن يمثل تصحيحا للسلوك الفرد والمجتمع على حد السواء، وتكريس لمبدأ العدل والتوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، فترتبط الأخلاق بالتدين قولا وعملا وسلوك، ويصبح ذلك منهجه التطبيقي في الحياة.

الخاتمة:

وفي الختام نؤكد على ضرورة تضمين منهج التصوف في مختلف المستويات التعليمية وذلك لما لهذه المادة من أهمية في غرس القيم الأخلاقية والروحية في الفرد، الأمر الذي ينعكس إيجابا في المجتمع ككل. وذلك لأهمية المناهج التعليمية في صقل شخصية المتعلم فهي لا تعنى بالتكوين العلمي والأكاديمي فحسب بل تتعداه لتنحت شخصية الطالب (المتعلم) على مستويات عديدة وعلى رأسها الجانب القيمي الأخلاقي والروحي، ومن ثم ينطلق في غمار الحياة عامة. موظفا بذلك كل تلك القيم الإيجابية.

المصادر والمراجع:

- **الكتب:**

1. الدمرداش، عبد المجيد: المناهج المعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة-مصر، ط/1، 1988م.
2. الشافعي، إبراهيم محمد، وأخرون: **المنهج المدرسي من منظور جديد**، مكتبة العبيكان، السعودية، ط/1، 1416هـ.
3. عوابدي، عمار: **مناهج البحث العلمي وتطبيقاتها في ميدان العلوم القانونية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط/3، 1999م.
4. ابن منظور، جمال الدين (ت-711هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت-لبنان، ط/3، 2004م.
5. مجمع اللغة: **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق، القاهرة-مصر، ط/4، 2010م.

- **المجالات والمقالات:**

6. أومليل، محمد: **التربية الأخلاقية عند الصوفية**، الأكاديمية الدولية للدراسات الصوفية والعرفانية، https://sufirfan.org/?p=8520
7. الشوبكي، محمود: **مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي**، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة 2002م.
8. المنوني، عادل: **التصوف تربية روحية أخلاقية**، https://www.hespress.com/التصوف-تربية-روحية-أخلاقية-291768.html